مجموعه قصصية

ذكريات من ويلات الحرب

غزة

سلمى رضا فؤاد

ما خفى أعظم

لكل شهيد قصة وحياة ولكل جريح ندبة لن تبارحها الأيام،،

لم يبق أحد

ليلة أمس كان يلعب مع أطفال حارته وقلبه حائراً، قلقاً لا يعلم لماذا. فهو حتى لم يكمل عقده الأول. لكن عزم هو ومن حوله على ألا تثير تلك الأحداث رهبته. وأصرّ على اللعب والمرح، وحتى إلقاء النكات، ما أثار قهقهة الآباء والجيران من حوله.

وفي تلك الأثناء، أتت باقي عائلته من الشمال لتحتمي عنده من حمم القصف والخطر.

لسذاجته وطفولته التي لم تُسرق بعد، فرح بقدوم أبناء عمومته وأبناء خالته من الصبيان والبنات. ليجتمعوا ويلعبوا معاً غير مبالين، أو هكذا تصنعوا، بما يجري في قطاعهم الصغير.

حتى أصبح المنزل ممتلئاً عن بكرة أبيه. وبدلاً من أسرة مكونة من أربعة أفراد، أصبح يحمل عبء واحد وعشرين فرداً.

نظر تجاه أبيه وأمه وكأنها نظرة الوداع. وابتسم حتى لاحظته والدته وسألته: "ما بك؟".

ليجيب ببراءة: "لا شيء. أنا فقط أشعر وكأنني اشتقت لكم بالرغم من أنكم أمامي".

ليتدخل العم من بين الجالسين مازحاً: "لا تجعلني أُقلق بهذا الحديث. بني، إن شاء الله سنعود نحن لدارنا سالمين وستبقون أنتم أيضاً سالمين. وإن حدث أمر ما، فهو مكتوب".

ثم نظر لوالد الفتى وتابع: "صحيح؟".

وفي تلك الأثناء، نهضت الأم بملامح قلقة حزينة، بل وحتى عيناها مرهقتان أو مستنزفتان أثر سقوط تلك الدمعات.

أما عن الأب، فلم يجيب، وبدلاً من ذلك أومأ برأسه إيماءة بنعم، وعلى وجهه ابتسامة غريبة. وقف الفتى ناظراً للجميع بابتسامة براقة غير مناسبة لتلك الأوضاع المزرية واقترح لعبة ما يلعبونها جميعهم. ثم تقدم في الوسط وصاح قائلاً: "معلمي

في العام الماضي قال لنا عندما تصل الأمور إلى منحدر صعب ويصعب كسره، وتصبح العملية معقدة بل ومستحيلة... أن نلعب تلك اللعبة الجميلة وهي أن نجتمع مع من نحب ونعبر عن حبنا لبعضنا وأحلامنا وأيامنا السعيدة، نتذكر كل هذا معًا. ما رأيكم؟ على الأقل بعدما ننتهي نحن من لعب الكورة نجتمع معكم هنا ونتحدث مطولاً عن كل شيء؟".

قال الأب بحماس زائف: "فكرة رائعة... حسنًا، اليوم بعدما تنتهي أنت وإخوتك ستجتمعون". وبالفعل، ما هي إلا دقائق وذهب الأطفال يلهون في الأسفل والكبار يتجاذبون أطراف الحديث وكذلك النساء بصوت منخفض وكلام قليل.

كانت الدار هادئة إلى حد كبير، خاصة بعد نزول الصغار، ولكن مع ذلك كانت الأفكار صاخبة والرؤوس لم تهدأ، كانت هناك جلبة قاسية حيث تتوالى الأحداث على الشاشة، حيث قال أحدهم: "قصف اليهود المشفى بالمرضى والجرح ولم يستجب أحد".

ليكمل الآخر بسخرية: "بعد كل ما عشناه معاً، اتضح أن حياتنا رخيصة". ليرد رجل عجوزًا بحكمة قائلاً: "لم تكن الأرواح يومًا رخيصة، حياتنا غالية حتى ولو أنكر الجميع... أما عن الصماتين

والمتخاذلين، فحتمًا سيذوقون مرارة مواقفهم". عم الصمت المنزل وتوقف الجميع عن الحديث.

في حالة انتظار ما ستبوح به الأيام، قرع الباب معلناً عن قدوم الصغار.

دخل الفتى مسروراً وقال: "حان الوقت". ابتهج الأب وكذلك العم، ورغم أنهما تناسيا ذلك الأمر إلا أنهم عزموا على عدم خيبة الفتى واجتمعوا في غضون دقائق. كانت غرفة المعيشة مكتظة بكل أفراد عائلتهم، ولكنهم بطريقة ما وجدوا حلاً، حيث قاموا بالتفاف على شكل دائري ومن بينهم صغار وكبار ونساء... عائلة كاملة. هتف الصغير ببراءة: "فلنبدأ".

ثم نظر إلى والده وتابع قائلاً: "ما حلمك يا أبي؟". ليرد الأب بحزن: "أن يزول الظلم". التفت الصغير نحو أحد الأشخاص وسأل: "وأنت يا أخي؟". فأجاب الأخير: "أكمل دراستي وأصبح طبيباً". حل الصمت مجدداً حتى تحدث الصغير أخيراً قائلاً: "وأنت يا عمي... أرجو أن تحلم حلماً واقعياً". رد العم: "حلمي... لا أعلم ولكن في تلك اللحظة أريد النجاة". تدخل الجد بصوت حنون قائلاً: "جميعنا نتمنى النجاة ونحب الحياة، ونخشى أيضاً الفراق والاختبارات..." صمت قليلاً كأنه أراد البكاء، وفي تلك الأثناء نهض الفتى وتقدم نحو جده ومسح على وجهه وقال بتساؤل: "لماذا تبكي يا جدي؟".

ليرد الجد بإشفاق: "لأنكم لا تستحقون تلك الحياة... الآن مفترض أن يخضع أخوك الأكبر وأختك للاختبارات نهاية العام، وأنتم الصغار مفترض أن تعيشوا وترى بهجة الحياة، وليس مآسيها وقسوتها... من

أين لكم أن تعلموا السلاح والقصف والاسرى والفقدان وتلك المصطلحات ... أليس من حقكم أن تعيشوا في أمان؟".

تنهد أحدهم وكانت تلك امرأة قالت: "لا تكن بائسًا يا أبي، هذا قدرنا. وإن كتب لنا النجاة فنحمد الله، وإن استشهدنا فهذا والله لأفضل من مائة دنيا أو حياة على الأقل نتخلص من اولئك المتخاذلين والظالمين."

تحدثت إحدى الصغار بتثاؤب قائلة: "أخشى الموت.. أخشى أن أكون أشلاء.. لا لا لا أريد ذلك."

وكان هذا بمثابة صحوة الواقع والآلام، فالبعض لم يتماسك وبكى، والبعض الآخر قلبه بدا خافقًا، ليس خشية من الموت ذاته، ولكن مشاعر مضطربة وكثيرة متداخلة تدور وتدور داخل عقولهم. من كان يتحدث عن الدراسة والطب والامتحانات، كان يتهرب من الواقع لا أكثر أحلامهم تبخرت منذ بداية الحرب، لذا يتلوه حديثاً لا أثر له حرصًا منهم على تجنب رائحة الموت المنبعثة في كل مكان.

جميعهم أرادوا الحياة، وكان هذا آخر اجتماع وحوار دار بينهم.

صمت تبعه صمت تبعه آخر.. حتى تثاءب واحدٌ وَقَرّرَ أن يستلقي عسى أن ينام وتمر الأيام وينجو. تفرقوا.. كل مجموعة ذهبت إلى غرفة ما، حيث يقدر عددهم واحداً وعشرين فرداً مقارنة بتلك الغرف الصغيرة والمتوسطة التي لا تناسب البتة تلك الأعداد المتدفقة. لم ينم أحدٌ تلك الليلة أو بالأحرى تلك الليالي، وكذب من قال عكس هذا.

الساعة الثانية بعد منتصف الليل،

أُطلِقَ صاروخ مُباشرة نحو ذلك المنزل الذي يقطن فيه حوالي واحد وعشرون شخصاً، من بينهم أطفال ونساء وكُبار.

مات الفتى ومات أبواه وجده وعمه، بل وماتت العائلة كاملة، فقد تم مسحهم عنوة من السجل المدني، ومُحوّوا تحت أنظار العالم بأحلامهم وحبهم وعشقهم للحياة، حتى لم يُرحمهم العالم، فلم يقدم عناء تقديم الأدوات لإخراجهم أموات.

لم يبقَ بالأمكان إخراجهم من تحت الأنقاض والركام.

تجمع الأهالي في بداية الأمر نحو المنزل المُستهدَف، والليل دامس بحيث لا ترى كف يديك، ومع ذلك توافد الجيران من كل صوب وحدب بكشافات صغيرة منبعثة، وحاولوا بكافة الطرق إخراج من يمكن إخراجهم سواء كانوا جثثًا أو أحياء، ليهتف أحدهم صارخاً: "لم يبقَ أحد .. لم يبقَ أحد يا عالم".

خرج الفتى وعمه جثثًا والباقي مات مفقودًا تحت الركام.

من أجل كيس طحين

أسرة صغيرة تضم خمسة أفراد استطاعت النجاة من القصف، حيث اتخذوا الخيمة ملاذاً آمناً. ليعودوا إلى دارهم ويجدوها مقصوفة وغير قابلة للسكن أو صالحة للحياة.

كان الأب يراوده مشاعر غريبة ما بين السعادة بالنجاة والحزن على الركام.

أخذت الأم تتصنع الفرح حتى تخفف وطأة الصدمة على الصغار وزوجها الذي بات مكسور الجناح.

فهذه الدار التي هدمت للتو في لحظات لها قصة خاصة، فهي قد بنيت بعد تعب وشقاء، مثلها مثل الكثير من البيوت المدمرة بفعل الاحتلال.

ومع ذلك، تصبح النجاة هي ألذّ شهية من الموت، حينما تدرك أن الموت قد يجعلك أشلاء مبعثرة أو يأتي بلا أكفان.

عاشت تلك العائلة مع بعضها البعض متكاتفة منذ بدء الحرب، فهم نجوا بالفعل من قصف الدار وتبعه النجاة من مجازر الخيام، وأيضاً من ذلك الجندي المتربص لهم بالسلاح.

يومًا تلو الآخر، وفي كل يوم، لا بد من عمليات شاقة .. فقط لتوفير مقومات الحياة من طعام وشراب. فلم يريدوا ألذّ الأطعمة ولا حياة فارهة، إنما أرادوا فقط الشعور بالأمان، وهذا ما تفتقده جميع عائلات هذا القطاع.

بدأ الأمر ينذر بكارثة حينما عاد الأب خالي الوفاض حيث لم يستطع الحصول على كيس طحين، ومن خلفه آباء وأمهات فقدوا ذويهم فقط لهذا الكيس.

نظرت الزوجة له في محاولة لطمأنته، ولكن حتى هي لم تعلم أنه سيصبح يوماً شهيدًا لهذا الكيس.

ففي اليوم التالي، تجمع مع مجموعة كبيرة من الناس في انتظار عربة المساعدات، عسى أن تأتي بأي شيء يسدّ جوع الأولاد.

انتظر حتى مرّت عدة ساعات، وفجأة صدر صوت شاحنة كبيرة، وكانت هذه بمثابة الأمان .. على الأقل في تلك اللحظة من المأساة.

هرع الأب مسرعاً حاله كباقي أهالي القطاع من حوله، يهرولون مسرعين بغير حرص أو اكتراث، حتى سقط بعضهم البعض.

على الرغم من علمهم بتلاعب جنود الاحتلال فقد سبق وارتكب بحق الأهالي مجازر نتج عنها طعام مغمس بالدماء.

أثناء تلك الحالة المضطربة، صدر صوت إطلاق نار تبعه أصوات أخرى، لينتج عن ذلك مجزرة الطحين.

مات الأب ومعه الكيس.

ترى كيف يكون مصير تلك العائلة ومن فقد ذويهم لأجل الطحين؟

إشلاء يا عالم

كان شابًا يافعًا حيث أحب الحياة وبادلته هي كذلك بالحب والإقبال. تزوج بعد قصة طويلة ومن ثمة أنجب فتاة، وبهذا نجح في بناء أسرة بسيطة. كان طموحًا هو وزوجته.

منذ البداية، اتفقا على مجاراة الحياة، فنجحا في بناء عدة مشاريع ليبنيا بيتًا ويشتريا سيارة ويعوضا ما فاتهما من معاناة وشقاء. انتظرا اللحظة حتى يستريحا ولو لحظة كهدنة بعد إرهاق وآلام.

ثلاثة أفراد عشقوا الحياة، جمعتهم حب المغامرة والمشاركة ورفاهية الأيام. لم يتوقعوا يومًا أن يكونوا أشلاء.

منذ اندلعت الحرب، فكر هذا الشاب أن حياته وحياة من يحب أثمن من مائة دار أو أحلام. وليعوضه الله عن تلك المشاريع، وحتى عن بيته الذي بناه بعد جهد واقتدار، ما عليه إلا الدعاء بحفظ ما ترك عسى أن يعود يومًا، ووضع في اعتباره أنه في حالة حدوث مكروه فلا بأس أن يبدأ مرة أخرى مع شريكته من الصفر أو حتى من أدناه.

لذا، أخذ سيارته ومعه زوجته والفتاة الصغيرة التي لم تنعم بعد بالحياة. ظنّ منه أنه يفعل الصواب. أخذ آخر ما يملك من سيارة وبعض الاحتياجات في طريقه نحو ملاذ آخر قال الاحتلال إنه أكثر أمانًا من باقي القطاع.

ذهب بحسن نية، رجل وامرأة وابنتهما ذات الأربع سنوات.

كانت الصغيرة تجلس في الخلف بعينين دامعتين حيث تركت دميتها المفضلة وألعابها، وذلك نتيجة عجلة والدها في المغادرة فورًا.

نظرت والدتها في عينيها ورأت الفتاة تلوّح بيدها وتنظر بدموع إلى السماء. وفي تلك اللحظة، اتضح أنها نظرة الوداع.

فجأة، انقطعت الحياة بلونا داكن أسدل بعده الستار.

وكتبت تلك الأسرة الصغيرة من ضمن الشهداء، ومع الأسف لم يعثروا على جثمان، وإنما عثروا على أشلاء.

لم يُدرك الشاب أن حياته الجديدة ليست في تلك الدنيا الظالمة، ولم تُدرك ابنته أنها بالفعل ستعود إلى دميتها، أم الزوجة فتقابل زوجها وابنتها في مكانٍ إيمانٍ أكثر من الحياة.

على الجانب الآخر، هرول الجميع نحو تلك السيارة المدنية التي كانت محترقة، وبالكاد لا يمكن رؤية ما فيها إلا رمادًا، لا يعرفون حتى هل كان فيها حقًا بشر أم لا. ولكن عرفوا عندما جمعوا الأشلاء.

صاح أحدهم لذلك الصحفي والمصور: "أشلاء يا عالم."

النفس الأخيرة

ما رأيتُ قطّ عينًا زائغة كعيون أطفال غزة، ولا رأيتُ قلبًا كقلوبهم الضعيفة الهشة، وهي ترتجف من أصوات المسيرات والقصف والقتل والنزوح والتهجير.

أطفال دون العاشرة من عمرهم يلتقطون النفس الأخيرة، ليعلن بعدها أن هذا الصغير لم يعد يحتمل ظلم العالم وبطش الخونة والمتخاذلين، وحتى التهديد بمزيد من القتل لصفوف كاملة من العائلات والأطباء والصحفيين، ليتضح مؤخرًا أن من حسن حظه قد استشهد، ومن أعناق عائلته قد فارق.

نعم، في غزة يُخْتَطَف الطفل عنوةً من عائلته، أما أسيرًا أو شهيدًا أو حتى مصابًا جريحًا.

من بين أكثر الصور إيلامًا لأطفال غزة، ليست القهر والظلم ولا الخوف مقارنةً بباقي أطفال العالم، وإنما لحظة إلتقاط النفس الأخيرة.

إحدى هذه الصور لا تزال عالقة في الأذهان، وأنا على يقين أن كل من رأى تلك الصور وشاهد تلك اللحظات لا يبرح سالمًا إلا وعاد وتذكر ليختلج قلبه ألمًا.

فما بال العائلات؟ أحدى تلك الصور كانت لفتاة صغيرة، جميلةٌ جدًا، تبدو في السادسة من عمرها، ترتدي ثيابًا رائعةً تشبهه، ملقاة على أرض المشفى، وبجانبها عدة مسعفين وأطباء، واضعين في منتصف جسدها الضئيل قطعةً من قماش أو شيء ما موضع الإصابة. تبدو أن تلك الإصابة ناتجة عن إحدى الشظايا. كانت لحظات فارقة وعصيبة لا يتحملها قلب بشر.

نحن لبعدنا عن غزة كنا نشاهد عبر شاشة هاتف، في فيديو صغير، لا يتخطى عدة ثوانٍ وبعض اللحظات.

عيناها زائغة، وبدأ فمها يضم بلا إرادة منها، كأنها تحاول جاهدة التقاط النفس الأخيرة، لتستشهد بشظية ظالمة تسلب طفولتها وروحها معًا.

ما جذبني نحوها هو حذاؤها. نعم، كان يبدو جديدًا لدرجةٍ أنني فكرتُ مليا فما لو كان أنه من ضمن أحد ثياب الأعياد، أو حتى قادمًا من فترة سابقة تلك الحرب الهوجاء. وخشيةً أن يكون تفكيري صواب، فهل يكون حذاؤها شاهدًا على سعادتها وكذلك يوم موتها واستشادها؟

خاتمة

التاريخ يعاد ويتكرر ولكن العبر والدروس لم يستفاد منها بعد.

لا قلق على فلسطين ولا على شعبها حتى ولو بعد مائتي يوم من الحرب ورغم الخذلان. وإنما تكمن الكارثة في ضمائر العرب والمسلمين المعاصرين لتلك الحقبة من الزمن وتلك الفترة الفارقة التي يشجب لها الجبين. لن يغفر لنا التاريخ وسيضعنا في المسودة المنطوية في إحدى السجلات المهينة والتي كنا يوماً نقرأ عنها بل ونستنكر ونطلق على من عاصرها بالمتخذلين. لنصبح نحن السجل التالي ونكن مثلهم.

ربما عائلات نسفت بأطفالها ونسائها وشيوخها وبقى بعضهم تحت الأنقاض، ربما قتلوا كثيرًا ولا زالوا يقتلون حتى اليوم في سلسلة بدأت بالخذلان منذ أكثر من خمسة وسبعين عامًا لتنتهي تلك الفترة بشهادتها علينا بتواطؤنا وصمتنا المطبق لا يمكن تجاوز أو نسيان ما جرى إلا بإحلال الوحدة والمروءة واتحاد المسلمين وإيقاظهم بعد هذا النوم والثبات العميق.

نعم، اتسعت الحرب بأشكالها المختلفة لمحتل يمارس التوجيع والقتل والأسر كعقاب لشعب قرر البقاء والصمود على أرضه ليردد المحتل عسى أن يتخلَّى بعضهم وينجو بحياتهم فلا أغلى من الحياة في نظرهم.

نعم، ازدادت حدة الجرائم، فلا مستشفى سلمت إلا وانتهكت بالقصف أو الحرق أو الاقتحام، ولا صحفي مارس مهنته إلا ودفع ثمنًا غاليًا سواء بنفسه أو عائلته، ولا طبيب ولا مسعف إلا وكانت حياته دائمًا على المحك مرهونة بعمله.

ممارسات ما قبل السابع من أكتوبر ظن بها المحتل أن هذا الشعب سيخضع، وأن الأمة الإسلامية والعربية ستندثر. ليأتي ذلك اليوم وتتضح معالم أخرى. ربما، ثبت بعضها مع الأسف، ليتبين منها أن العرب وصلوا لمرحلة العار والخزي وحتى الاندثار، وان كان بشكل مؤقت، وهذا ما يجهله المحتل، فلا يمكن أبدًا التنبؤ باستمرار هذا الخذلان. فحتمًا الضعف والخذلان والخيانة يتبعه القوى والإيمان والحق، لا سيما عندما تكون الجذور صادقة وعادلة وليس من سماتهم هذا التواطؤ والصمت البارد.

أما عن فلسطين وشعبها، فبقوا كما هم، لأنهم ببساطة هم المعنيون.

فقد عانوا، وليس هذا بالأمر الجديد. يدركون تمامًا هذا المحتل وجرائمه على عكس ما نحن عليه العرب فلا نسمع بأنين العذاب المنبعث من تلك الرقعة الصغيرة ولا نرى ما يجري في الضفة إلا لو كان بصدد جلل عظيم، بينما هم تارة يتألمون وتارة يصمدون، هم فقط يدركون، أما عن أطفالهم فيعلمون الأسر جيدًا فذاقوا التشريد واليتم مبكرًا. هم فقط من يعلمون تدمير المنازل حتى تكون أنقاضًا واضطرار العيش في الخيام ومجاراة الحياة أثناء الحرب فى انتظار انتهاء هذا المحتل من ممارساته الهوجاء.

من آثار ما بعد السابع من أكتوبر هو نهضة أطفال هذا الجيل على مشاهد القتل والتشريد والتجويع والخراب الظالم على شعب أعزل. فبينما أجداد هذا الجيل لم يفعلوا شيئًا سواء بمحض إرادته أو لا،

ربما أطفاله هم القادمون. ما عاشه كل طفل وامرأة في غزة والضفة لا يمكن أن يمر دون عقاب، فالتاريخ ليس ظالماً مثلنا نحن الآن، وإنما يتأنى حتى يعد أعداداً جيداً للرد. كل صحفي وثَّق تلك المجازر والإبادة

بحق ٢.٥ مليون إنسان، سيثمر نتاجه ربما ليس الآن وإنما فيما بعد. قبل التحرير تأتي التضحيات، ولأن الأقصى المبارك ثمين، فتضحياته في المقابلة بالغة. في الأخير، يحب التنويه على أن كل غزي إنسان يتألم ويضعف مثلنا تماماً، كذلك يتضور جوعاً إن لم يأكل ويمرض، ومن حقه كذلك أن يعالج.

لديه أحلام وطموحات وكذلك حياة، مستعد أن يفعل أي شيء لينجو بها، ومع ذلك وجد حرباً غير عادلة مفروضة عليه منذ ولادته في غزة أو فلسطين المحتلة. ولكن ما يميزه عنا نحن شعوب العرب والمسلمين هو الإيمان والشجاعة والمروءة والكرامة التي فقدناها أغلبنا اليوم. ربما لم نكن معكم في تلك الفترة، ونأسف لخذلانكم، ولكن أصمدوا كما أنتم، فوالله سيشهد التاريخ أنني أضعف أمة على العرب المسلمين بتركنا إراقة دماء أطفال ونساء ورجال غزة الأحرار. صابروا قليلاً، عسى أن ينهض من ذلك الركام بطلاً نقف معه ضد أعداء الإنسانية وطغاة الظلم.